توافق ضمني على تفادي المواجهة: الصين وأمريكا.. بين التنافس السياسي والمصالح الاقتصادية

18-7-2004

ورغم الخلاف الأيديولوجي والسياسي بين البلدين، وبرغم تقاطع المصالح في بعض الخطوط في آسيا، فإن الصين تتمتع بذكاء سياسي وحكمة بالغة في تفادي المواجهات غير مأمونة العواقب، وقد درس الصينيون بعناية تجربة رفاقهم في الاتحاد السوفيتي خلال سنوات الحرب الباردة

بقلم عبدالله صالح

مواد ذات علاقة

الصين: قوة التغيير تعزز صعودها المثير

لا توجد علاقات سياسية بين بلدين في العالم أكثر تعقيدا من العلاقات الأمريكية الصينية، فحين تتأزم العلاقات بين واشنطن وبكين إلى الحد الذي يقترب من الانفجار، تتكسر رياح الغضب بين البلدين بصورة درامية وغير مفهومة، وكأن أبواب قنوات الاتصال السرية قد انفتحت على مصراعيها فجأة ليقول زعماء البلدين في الخفاء ما لا يقولونه في العلن، وحين تتطور العلاقات إلى الحد الذي يظهران فيه كحليفين استراتيجيين، تندلع النيران بلا حدود وهي دائما من مستصغر الشرر.

ففي الوقت الذي قاد فيه البيت الأبيض حملة شرسة ضد الحكومة الصينية في أعقاب حادثة الاعتداء على الطلاب في ميدان السلام السماوي في بكين عام 1989، كان الكونجرس الأمريكي يرتب أوراقه ليمنح الصين وضع الدولة الأولى بالرعاية من قبل الولايات المتحدة الأمريكية، وحين اندلع بركان الغضب في بكين بعد حادثة قصف السفارة الصينية في بلجراد خلال ضربات (الناتو)، كانت الصين تعمل على توسيع دائرة التفاوض مع واشنطن لكي تسمح لها بالانضمام إلى اتفاقية التجارة العالمية (الجات)، وبينما كان الكونجرس يشحذ أسلحته لعقاب الصين بعد اتهامها بسرقة الأسرار النووية الأمريكية، كانت وزارة الدفاع الأمريكية تواصل بقوة مفاوضاتها على أرفع المستويات لدعم التعاون العسكري مع بكين.

والحقيقة أن مراكز الدراسات الأمريكية كانت هي أول من اخترع فكرة سيادة الصين على القرن الحادي والعشرين من الناحيتين السياسية والعسكرية، وظهرت عشرات التنبؤات الأمريكية التي تعتبر هذا القرن قرنا آسيويا خالصا، وفى أسوأ الأحوال، من وجهة النظر الأمريكية فإنه سيصبح قرنا صينيا خالصا. ووفقا لتلك التوقعات تحددت الكثير من التوجهات الاستراتيجية الأمريكية نحو الصين، وعلى هذه الخلفية صاغ الأمريكيون سياستهم تجاه المارد الأصفر المرتقب. ويبدو أن البيت الأبيض ومؤسسة الاستخبارات الأمريكية بدأت ترصد عن قرب تطورات الأوضاع داخل الأراضي الصينية، وتسجل بدقة التصاعد المطرد في معدلات النمو الاقتصادي ودعم الحركة التصنيعية، والتفوق في المجال العسكري، إلى جانب المكاسب الدولية التي تحققها بكين، خاصة بعد أن استعادت أعظم المدن التجارية العالمية هونج كونج من أيدي البريطانيين عام 1997 إلى جانب سعيها لاستعادة تايوان، بالإضافة للاحترام الدولي الذي تحظى به بكين خاصة بين بلدان العالم الثالث.

ولأن الأمريكيين منذ انهيار الاتحاد السوفيتي، تسيطر على سياستهم الخارجية فكرة قيادة الولايات المتحدة للعالم بلا منافس، ولا يسمحون بأن تشاركهم أي قوى أخرى في العالم في الزعامة، فإن المعادلة الدولية من وجهة نظر واشنطن ينبغي أن تمضى وفق نظرية استيعاب الصين وتوظيفها في إطار المشروع الأمريكي، على أساس أنه إذا مضت التنبؤات الأمريكية في اتجاهها الصحيح فإن أمريكا عليها أن تروض هذه القوة المتصاعدة وتتعاون معها، لتصب قوتها في نهاية الأمر في سلة المصالح الأمريكية، لا أن تصبح قوة الصين خصما لقوة أمريكا، وترث بكين موقع القوة الثانية الشاغر منذ انهيار الاتحاد السوفييتي.

أما على الجانب الصيني فإن بكين تدرك من جهتها أن الكثير من أوراق اللعبة في العالم في أيدي الولايات المتحدة الأمريكية، فطوال سنوات الحرب الباردة كانت الصين تأمن جانب الدب الروسي وتدرك أن الخلاف الفكري مع الاتحاد السوفييتي لن يتحول إلى مواجهة خطرة لانشغال السوفييت بالسباق الدولي ثنائي القطبية، وفي الوقت الذي تتمتع فيه بعلاقات أمريكية حذرة، تدرك الصين أيضا أنها لن تصل إلى حد الأزمة المعقدة لنفس الأسباب، لكن الصين اليوم باتت على يقين أنها لكي تستكمل مراحل نموها العسكري والاقتصادي والسياسي، وتعزز نفوذها الدولي فإن عليها أن تتجنب مواجهة ساخنة أو باردة مع واشنطن.

وربما يرجع هذا التصور الصيني إلى جملة من الأسباب، فبكين لم تعد صاحبة القنبلة النووية الوحيدة في آسيا، فإلى جانب إرث الاتحاد السوفيتي البائد, والموزع بين عدد من جمهوريات الاتحاد الروسي، قفزت دولتان آسيويتان إلى النادي النووي هما الهند وباكستان، وإن كان الأعضاء الجدد في المعسكر النووي ينشغل كل منهما في الصراع مع الآخر، فإن بكين لا تنسى تاريخ الصراع الطويل مع الهند والذي شهد حروبا طاحنة مرات عديدة، الأمر الذي يجعلها تتحسب بدقة حين تخطو بنفوذها النووي والعسكري والبشرى إلى أبعد من حدودها، والهند ليست دولة نووية لها صراعها التاريخي الطويل مع الصين فحسب، لكن يقين بكين أن القنبلة الهندية ليست مقطوعة الصلة بالولايات المتحدة الأمريكية، وأنه في حالة نشوب صراع سياسي أو عسكري بين البلدين في إطار ترتيب أوضاع الهيمنة الجديدة في القارة الآسيوية، فإن واشنطن لن تكون بأي حال في المعسكر الصيني، وستدعم أمريكا أصدقائها في نيودلهي حتى النهاية.

وبنفس المنطق، فإن بكين ليست على وئام كامل مع كوريا الشمالية صاحبة المشروع النووي الناهض, كما أنها تعلم أن دول النمور الآسيوية المتألقة اقتصاديا عند تخومها في جنوب شرقي القارة ترتبط بعـلاقات وثيقة مع الولايات الـمتحدة الأمريكية، إلى جانب الصراع الذي ينتظر المارد الصيني حول استعادة جزيرة تايوان، وهو صراع يصعب حسمه من دون موقف دولي مساند لمطالب الصين, ومفتاح هذا الموقف الدولي, وأدوات صياغة الرأي العام في تايوان كلها بأيدي واشنطن.

ومن جانب آخر، فإن الرغبة الأمريكية المتصاعدة في تنمية العلاقات مع الصين لا ترجع فقط لحرصها على استيعاب قوة عالمية ناهضة وترويضها تحت المظلة الأمريكية, فالولايات المتحدة الأمريكية تضع مصالحها الخاصة في القارة الآسيوية على رأس قائمة الأولويات حاليا، خاصة أنها ترتبط مع آسيا بمصالح تجارية واقتصادية متشابكة، ومعظم الشركات الأمريكية لها فروعها الهامة في دول جنوب شرق آسيا, وترى واشنطن أن هذه المصالح يمكن أن تتضاعف بقوة في حالة قدرتها على استقطاب الصين كشريك تجارى وفتح الأسواق الصينية أمام البضائع الأمريكية، وكان لهـذه الـمصـالح الأولوية المطلقة حتى في أعنف لحظات المواجهة.

وإلى جانب هذه الشبكة من المصالح المتداخلة، فإن علاقات البلدين ترتبط ببعد آخر، هو نفوذ اللوبي الصيني المتنامي داخل الولايات المتحدة الأمريكية، فالصينيون الأمـريكيون يشاركون بنسبة لا يستهان بها في صياغة العلاقات الجديدة بين واشنطن وبكين، وهذا اللوبي الصيني في أمريكا يمتد نفوذه إلى العديد من الشركات والمؤسسات الأمريكية ولا يواجه أية محاذير أو عقبات سياسية على غرار ما يتعرض له اللوبي العربي المتورط في صراع دائم مع الجماعات الصهيونية في الولايات المتحدة.

وأحد الدلالات الهامة للدور الذي يقوم به اللوبي الصيني هو ما أذيع خلال حملة انتخابات الرئاسة التي فاز بها بوش عام 2000، حيث ترددت معلومات مؤكدة عن دور لبعض رجال الأعمال الصينيين حاملي الجنسية الأمريكية في دعم الدعاية الانتخابية لكلينتون مقابل تطويرالعلاقات الأمريكية الصينية، ولا يستبعد كثير من القريبين من دوائر الأحداث في واشنطن أن يكون هذا الدور الذي قام به الصينيون في أمريكا قد تم بناء على طلب من حكومة بكين التي تتطلع أيضا لدعم علاقاتها مع واشنطن، بشروط أيسر من التي يطرحها المتشددون في الإدارة الأمريكية تجاه قضايا حقوق الإنسان وغيرها من الملفات الخلافية بين البلدين.

ورغم الخلاف الأيديولوجي والسياسي بين البلدين، وبرغم تقاطع المصالح في بعض الخطوط في آسيا، فإن الصين تتمتع بذكاء سياسي وحكمة بالغة في تفادي المواجهات غير مأمونة العواقب، وقد درس الصينيون بعناية تجربة رفاقهم في الاتحاد السوفيتي خلال سنوات الحرب الباردة، وأدركوا مخاطر سباق التسلح أو الدخول في حرب باردة جديدة مع الولايات المتحدة الأمريكية التي خرجت منتصرة من حربها الأولى مع موسكو. ولذلك فإن طموحهم للمنافسة قد لا يتجاوز حدود القارة، وحتى في هذه الحالة فإنهم لن يجروا أنفسهم لصدام مع الولايات المتحدة الأمريكية يفرض على اقتصادهم تحديات جديدة تعرقل انطلاقهم، على المستويين الإقليمي والدولي.